

لم اكن كافيا 2

رواية

معتز هيثم كرم

(8)

كانت رائحة "ببرونة" زين لا تزال في أنفي، وملمس يد
آية الدافئة يطبع أثراً على كتفي. كنتُ أضحك وأنا أقول
".!ها: "شوفي زين بيحاول يقف يا آية

فجأة.. تلاشت الضحكة. تحول ملمس يد آية إلى قبضة قوية تهز كتفي بعنف، ورائحة الحليب الدافئ تحولت إلى رائحة "كممة" وتراب قديم

قوم يا معتر! الساعة بقت 12 الظهر وأنت مرمي كدة! "
قوم شوف المصيبة اللي باعتيها على التليجرام، الناس
"!بتسأل على فلوسها

فتحت عيني ببطء. لم يكن هناك سقف شقتنا الجديد، ولا ألعاب زين المبعثرة. كان هناك السقف المتشقق في غرفتي القديمة، وصورة والدي المغبرة المعلقة على الحائط تنظر إليّ بعباب صامت

"نظرتُ حولي بذعر. "آية؟ زين؟ أنتم فين؟

أمي وقفت أمام الباب، وجهها الشاحب وعيناها المتعبتان يحكيان قصة بؤس لا تنتهي. نظرت إليّ بشفقة وقالت:
"آية مين وزين مين يا ابني؟ أنت كنت بتهلوس طول الليل.. قوم يا معتر، الفقر مش محتاج نوم، الفقر محتاج حركة."

الدم تجمد في عروقي. تحسستُ إصبعي.. لم يكن هناك
خاتم خطوبة. نظرتُ إلى اللابتوب المفتوح بجانبني، كانت
شاشة التليجرام تشتعل برسائل التهديد والشتائم من
"مستثمرين" وهميين.

سقطتُ على الأرض بصرخة لم تخرج من حنجرتي.
كانت صرخة روح أدركت أنها كانت تعيش في "جنة"
من صنع خيالها، لتستيقظ على "جحيم" واقعها. لم يكن
هناك نجاح، لم تكن هناك جامعة عين شمس، لم يكن
هناك حب.

كان هناك فقط.. معتر الفاشل، والديون، وفراغ موحش
يسكن مكان قلبي.

لقد عدتُ يا أبي.. عدتُ لأثبت لك للمرة الألف.. أنني "لم
أكن كافياً" حتى لأحلم.

لم أكن أصدق. جلستُ على سريري المتهالك لساعات، أهدق في
الفراغ، وأتحسسُ يدي اليسرى كل دقيقة. كان ملمس "الخاتم" لا
يزال محفوراً في جلدي، كنتُ أشعر ببرودته تلامس إصبعي، لكن
عندما أنظر، لا أجد سوى أصابع شاحبة، مرتجفة، وخالية تماماً من
أي عهد.

آية.. مستحيل تكوني خيال"، همستُ لنفسي وصوتي يشرخ " صمت الغرفة الكئيب. كانت تفاصيلها حية جداً في عقلي؛ ضحكتها التي كانت تملأ زوايا شقتنا (الوهمية)، ملمس ثوب زفافها، وحتى رائحة الياسمين التي كانت تفوح من كفيها

أمسكتُ بهاتفي بيد مرتعشة. فتحتُ تطبيق "واتساب". قلبتُ في الأسماء بسرعة جنونية. "آية.. آية.. آية؟". كنتُ أتوقع أن أجد اسمها في قائمة "المثبتون"، أو أجد صوراً لنا في المعرض. لكن الحقيقة كانت كالسكين؛ لم يكن هناك سوى "جروبات" التليجرام المزعجة، وأرقام لأشخاص يطالبون بفلوسهم، ورسائل من "بوتات" مبرمجة لسرقة أحلام البسطاء

دخلتُ على "فيسبوك". كتبتُ اسمها في محرك البحث: "آية...". ظهرت لي آلاف النتائج. فتيات بملامح تشبهها قليلاً، وأخرى لا يمتن لها بصلة. قلبتُ في مئات الحسابات، كنتُ أبحث عن تلك النظرة التي لا تخطئها عيني. لكن كلما زاد بحثي، زاد شعوري بالخنق

هل من الممكن أن يكون عقلي قد "نحت" هذا الوجه من مجرد فتاة رأيتها صدفة في المترو؟ هل "زين" كان مجرد تجميع لشظايا طفولتي التي لم أعشها؟

معتز! الأكل هيبرد.. قوم يا ابني بطل جنان!"، جاء صوت أمي " من المطبخ، حاداً، يفتقر لأي رقة، يحمل مرارة سنوات الشقاء وحدها.

خرجتُ إليها، كنتُ أمشي كالميت. نظرتُ إلى المائدة البسيطة؛ "فول وجبن قديم". قارنتُ بين هذا وبين الفطور الذي كانت تعده لي آية في حلمي. شعرتُ برغبة في القيء. الغرفة كانت تضيق، والجدران "التي كانت تبدو لي بالأمس كـ"سكن"، أصبحت اليوم كـ"زنزانة

أمي.. إحنا رحنا جامعة عين شمس قبل كدة؟"، سألتها وأنا أحاول " ابتلاع لقمة جافة.

نظرت إليّ بسخرية مريرة: "عين شمس إيه يا حسرة؟ أنت نسيت إنك مسحبتش ملفك من المعهد الفني عشان مكنش معانا فلوس المصاريف؟ أنت بقالك سنة قاعد قدام الشاشة دي بتوهم نفسك "وتوهم الناس، والديون ركبتنا

نزلت الكلمات عليّ كالصاعقة. المعهد الفني؟ الفقر؟ الديون؟

أين هي "آداب عين شمس"؟ أين هو "قصر الزعفران"؟

أدركتُ أن عقلي لم يكتفِ باختراع زوجة وطفل، بل اخترع لي "تاريخاً" كاملاً، "مستقبلاً" بديلاً، ليهرب من قسوة الحاضر

عدتُ إلى غرفتي، وأغلقت الباب. رميتُ بنفسِي على الكرسي أمام الكمبيوتر. لمحتُ في زاوية الشاشة ملفاً قديماً بعنوان "رواية". فتحته بلهفة. كنتُ أتوقع أن أجد فصول الجزء الأول التي "كتبتها" في حلمي.

وجدتُ الملف فارغاً.. إلا من جملة واحدة كنتُ قد كتبتها قبل شهرين:
في لحظة يأس:

"أنا فاشل.. ولن أكون كافياً أبداً"

في تلك اللحظة، شممتُ رائحة ياسمين خفيفة جداً، رائحة تشبه عطر آية. التفتُ حولي بلهفة، لكنني لم أجد سوى سلة المهملات المليئة بأوراق "الشاي" البارد، وصورة والدي التي سقطت من مسمارها لتستقر في التراب.

لقد رحلت آية، ورحل زين، وبقيتُ أنا.. وحيداً مع تليجرام يشتعل، وقلبٍ بدأ يتآكل من الداخل

لم يكن صوت المنبه هو ما أيقظني هذه المرة، بل كان صوت "النبضات" المتتالية لهاتفي فوق المكتب الخشبي. كانت الاهتزازات تشبه ضربات المطر على سقف صفيحي، لكنها كانت تحمل في طياتها صواعق لا ترحم.

فتحتُ عينيّ، وتمنيّت للحظة أن أعود لذلك الحلم، أن أرى وجه "زين" ولو لثانية واحدة قبل أن يبتلعني السواد. لكن الواقع كان أسرع. سحبتُ الهاتف، وانفتحت شاشة "التليجرام" لتكشف عن مئات الرسائل في "جروبات" الاستثمار الوهمية التي كنتُ أديرها.

"فين فلوسنا يا نصاب؟"

"!والله لو ما رديت لابلغ المباحث، وعارفين عنوانك"

"بيقولوا اسمه معتر، وشغال من بيته.. حد يوصلنا ليه"

كانت الكلمات تنهش عينيّ. في حلمي، كنتُ "معتر الكاتب"، "معتر المصمم العالمي"، "معتر الزوج المثالي". أما هنا، في هذه الغرفة الضيقة التي تفوح منها رائحة السجائر الرخيصة واليأس، لم أكن سوى "نصاب" رقمي، يبيع الأوهام للناس ليشتري لنفسه يوماً إضافياً من البقاء.

حاولتُ الكتابة، حاولتُ اختراع "كذبة" جديدة، كما كنتُ أفعل دائماً. "السيستم واقع"، "المحافظ مجمدة"، "انتظروا التحديث القادم". لكن أصابعي تجمدت فوق لوحة المفاتيح. شعرتُ بتقزز شديد من نفسي. كيف كنتُ أعيش هكذا؟ كيف كان عقلي يتقبل هذا الوحل قبل أن يهرب إلى جنة "آية"؟

فجأة، رن جرس الباب بعنف. انتفضتُ من مكاني، وسقط الهاتف من يدي.

معتز! افتح يا معتز!.. لم يكن صوت أمي، بل كان صوتاً خشناً " لرجلٍ غريب

تسللتُ نحو الباب بخطواتٍ مرتعشة، ونظرتُ من "العين السحرية". كان هناك رجلان يرتديان ملابس بسيطة لكن ملامحهما كانت توهي بالغضب الشديد. خلفهما، كانت أمي تقف في الممر، وجهها شاحب. "كالموت، ويدها ترتجفان وهي تمسك بطرف "إسدالها

في إيه يا جماعة؟ ابني عمل إيه؟"، سألت أمي بصوت متهدج " رد أحدهما بصوتٍ عالٍ هزّ جدران البيت: "ابنك واخذ منا 20 ألف جنيه عشان يشغلهم في 'التداول' وقفل الحساب. لو مطلعش "دلوقتي، هنعمل محضر في القسم ونحبسه

شعرتُ بالأرض تميد بي. 20 ألف جنيه؟ في حلمي، كنتُ أتصدق بمثل هذا المبلغ في جلسة واحدة. أما الآن، فهو ثمن "حريتي" أو "سجني". عدتُ إلى غرفتي، أغلقتُ الباب، وسندتُ ظهري عليه وأنا أتنفس بصعوبة

نظرتُ إلى صورة "آية" المتخيلة في عقلي. صرختُ في سري: "ساعديني! قولي لي إن ده كمان حلم! قولي لي إنك هتفتحي الباب

وتقولي لهم إن جوزك راجل شريف!".. لكن الصمت كان الرد
الوحيد. آية لم تكن هناك، ولن تكون

معتز! افتح يا ابني وكلم الناس!"، صرخت أمي وهي تبكي خلف "
الباب

فتحتُ الباب أخيراً. واجهتهم بوجع يتجاوز حدود المال. نظرتُ إليهم
:بعينين غائرتين، وقلتُ بصوتٍ ميتٍ

"والله ما معايا مليم.. والله كله ضاع في المحافظ اللي اتقفلت"

انفجر أحدهم في وجهي بالسباب، بينما انهارت أمي على الأرض
وهي تلطم خديها. في تلك اللحظة، لم أرَ الديون، ولم أرَ الرجال
الغاضبين.. رأيتُ فقط "الفشل" متجسداً في ملامح أمي. رأيتُ كم أنا
صغير، وكم أنا "غير كافٍ" حتى لحماية هذا البيت المتهاك

انتهى الموقف بوعودٍ كاذبة بجدولة الدين، وبتهديداتٍ بالعودة غداً.
أغلقتنا الباب، وساد صمتٌ أثقل من الجبال. نظرتُ إليّ أمي بنظرة لم
أرها من قبل؛ نظرة انكسارٍ نهائي

ليه يا معتز؟ ليه يا ابني عملت فينا كدة؟ أبوك لو كان عايش كان "
مات فيها"

دخلتُ غرفتي، وارتيمتُ على السرير. فتحتُ الهاتف مرة أخرى، لكن ليس لـ "التليجرام"، بل لملف الصور. كنتُ أبحثُ عن "وهم" .أتشبتُ به. وجدتُ صورة قديمة لوالدي وهو يحملني وأنا طفل

همستُ للصورة بمرارة: "عندك حق يا أمي.. أبويا مات عشان مشافش خيبتي. وأنا هموت عشان شفت 'الجنة' ورجعت للجحيم ده".تاني

في تلك الليلة، قررتُ أنني لا أستطيع البقاء. الجدران أصبحت تضيق، وصوت "زين" الذي يطاردني في أحلامي أصبح يصرخ في أذني: "اهرب يا بابا.. اهرب من هنا

هربتُ من البيت في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ الدائنون وقبل أن تلاحقتني نظرات أمي التي أصبحت أثقل من قيود الحديد. كنتُ أسير في شوارع القاهرة المغبرة، أشعر أنني جسدٌ بلا روح، كائنٌ طفيلي يعيش على هوامش مدينة لا ترحم. لم أجد مكاناً أُلجأ إليه سوى "هناك".. إلى المكان الذي يرقد فيه الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه أن يخبرني من أنا

وصلتُ إلى المقابر. كان الصمت هناك مهيباً، صمناً يختلف عن صمت غرفتي؛ فهو صمتمٌ ممتلئٌ بالحقائق لا بالأوهام. مشيتُ بين الشواهد حتى وصلتُ إلى قبر والدي. وقفتُ أمامه، وشعرتُ بركبتي تخوناني، فسقطتُ جالساً على التراب البارد

أنا جيت يا بابا.. " همستُ بها، وخرج صوتي مخنوقاً كأنه آتٍ من "
بئرٍ عميقٍ.

تذكرتُ في حلمي (الذي كان كابوساً مقلوباً) كيف كنتُ أتخيل والدي
فخوراً بي في حفل تخرجي، وكيف كان يحمل "زين" ويضحك. كانت
تلك الصورة هي وقودي للبقاء. أما الآن، وأنا أجلس أمام قبره
الحقيقي، أدركتُ الفجوة المرعبة بين ما تمنيته وبين ما أنا عليه.

"أنا ضعت يا بابا.. ضيعت كل حاجة"

بدأتُ أحكي له، أو ربما أحكي لنفسي، عن جحيم "التليجرام"، عن
الوعود الكاذبة التي بعثها للناس، عن الديون التي تحاصر رقبتني،
وعن "آية" و"زين" الذين سكنوا عقلي ورحلوا وتركوا قلبي
محترقاً. كنتُ أبحث عن رد، عن إشارة، عن يدٍ تخرج من تحت هذا
التراب لتصفعني أو لتضمني.. لكن القبر ظل صامداً في صمته
الموحش.

تذكرتُ كلمات أُمي: "أبوك لو كان عايش كان مات فيها". شعرتُ
بوخزةٍ في صدري؛ هل رحل أبي لكي لا يرى خيبتني؟ هل كان موته
رحمةً له من رؤية ابنه وهو يتحول إلى "نصاب" يطارده الناس؟

نظرتُ إلى السماء الرمادية، وصرختُ في داخلي: "ليه مخلتنيش
كفاية يا ربي؟ ليه سيبتني أحلم بالجنة وترميني في الجحيم ده
".تاني؟

في تلك اللحظة، هبت نسمة هواء باردة، حركت الرمال حول القبر.
تخيلتُ لوهلة أن أبي يقف أمامي، بلامحه الوقورة ونظرته
الصارمة المحبة. تمنيتُ لو يوبخني، لو يصرخ فيّ، لو يخبرني أن
الطريق لا يزال مفتوحاً. لكن الخيال لم يدم سوى ثانية واحدة، ليعود
الواقع ويصفني برائحة الموت والتراب

مسحتُ دموعي بكم قميصي المتسخ. أدركتُ أنني وحيد تماماً. لا
الأب سيعود، ولا الحلم سيتكرر. أنا "معتز" الذي لم يكن كافياً ليكون
ابناً باراً، ولا طالباً مجتهداً، ولا حتى نصاباً ناجحاً

قمتُ من مكاني، نفضتُ التراب عن بنطالي، ونظرتُ للقبر نظرة
أخيرة.

أنا لازم أمشي يا بابا.. المكان ده مش مكاني، والبيت ده مبقاش "
بيتي. أنا لازم أهرب من نفسي قبل ما أهرب من الناس

عدتُ إلى الشارع، لكن هذه المرة لم يكن في عقلي سوى فكرة
واحدة، فكرة مظلمة وباردة كشواهد القبور التي تركتها خلفي:
"الرحيل". ليس الرحيل إلى المقابر، بل الرحيل بعيداً عن هذا

الوطن، بعيداً عن كل وجه يعرفني، بعيداً عن أُمي التي أصبحت مرآة
لنفسي.

لم أكن أعلم أن هذا الهروب سيكون بداية السقوط النهائي في "بئر
اليأس"، وأن الغربة التي أبحث عنها لن تكون سوى مقبرة أخرى..
لكنها مقبرة بلا اسم

الليل في غرفتي القديمة ليس مجرد وقت لغياب الشمس، بل هو
وحشٌ أسود يطبق على صدري، ويخرج من زواياه كل الشياطين
التي حاولتُ دفنها في النهار. كنتُ مستلقياً على ظهري، أهدق في
الشقوق التي ترسم خريطة من البؤس على السقف، وفجأة..
سمعتها

"!بابا.. بابا.. كورة"

انتفضتُ من فراشي وكان صاعقة ضربت جسدي. تصبب العرق
البارد من جبيني، وبدأتُ أتلفت حولي في الظلام الدامس. الصوت
كان واضحاً، رقيقاً، يحمل بحّة الطفولة التي ميزت "زين" في
حلمي.

زين؟ أنت هنا؟" همستُ بصوتٍ مرتجف، ويدي تتحسسان الهواء "
حولِي، باحثةً عن جسده الصغير الذي اعتدتُ حمله

لم يكن هناك سوى الصمت. صمتٌ ثقيل يقطعه طنين المروحة القديمة. مسحتُ وجهي بكفيّ، وقلتُ لِنفسي بصوتٍ مسموعٍ: "أنتِ! ابتهلوس يا معتز.. مفيش زين، مفيش آية.. فوق

حاولتُ العودة للنوم، لكن بمجرد أن أغمضتُ عيني، شعرتُ بشيءٍ يلمس قدمي. لمسة رقيقة كيد طفلٍ يحاول إيقاظ والده ليلعب معه. "إقفزتُ من السرير وصرختُ بأعلى صوتي: "كفاية! ارحموني

انفتح باب الغرفة بعنف، وأضاءت أمي النور وهي ترتجف من الرعب. نظرت إليّ وأنا واقف في ركن الغرفة، ملابسي مبعثرة، وعيناي جاحظتان، ويدي تشير إلى الفراغ

في إيه يا معتز؟ بتصرخ ليه يا ابني؟" سألت وهي تبكي بحرقة " كان هنا يا أمي! زين كان هنا! لمس رجلي وطلب الكورة!" " صرختُ فيها وأنا أنهار على الأرض

اقتربت مني ببطء، وكأنها تخشى التعامل مع وحش كاسر. وضعت يدها على رأسي، وقالت بصوت يملؤه الانكسار: "يا حبيبي.. مفيش حد هنا غيرنا. أنت بقالك يومين بتكلم الحيطه، وبتنادي على أسماء "مسمعناش عنها قبل كدة. اذكر الله يا معتز، أنت بتضيع منا

نظرتُ إليها، فرأيتُ في عينيها شيئاً أخطر من الخوف.. رأيتُ
"الشفقة". الشفقة على ابنها الذي فقد عقله بعدما فقد مستقبله. في
تلك اللحظة، أدركتُ الحقيقة المرة: أنا لستُ مجرد فاشل أو مديون..
أنا أفقد عقلي.

لقد كان عقلي الباطن يرفض الواقع بشدة، لدرجة أنه بدأ "يُجسد"
الحلم في غرفتي. بدأتُ أشم رائحة عطر آية في ملابسني القديمة،
وأرى ظل طفل صغير يركض في الصالة المظلمة. كل ركن في هذا
البيت المتهاك أصبح "مسكوناً" بذكريات لم تحدث أصلاً.

هل أنا مجنون؟ ربما الجنون هو الحل الوحيد للهروب من مطالب
"الدائنين" الذين يطرقون الباب في الصباح، ومن نظرة الخيبة في
عين أمي، ومن طيف أبي الذي يطاردني بعتابه الصامت.

عدتُ إلى فراشي بعدما خرجت أمي وهي تجر أذيال اليأس. أغلقتُ
النور، وقررتُ أنني لن أحارب الهلاوس بعد الآن. إذا كان الجنون
سيمنحني "زين" و"آية" مرة أخرى، فأهلاً به.

استلقيتُ، وأغمضتُ عيني، وهمستُ في الظلام: "تعال يا زين.. بابا
مستنيك".

وبالفعل، سمعتُ ضحكته الصغيرة تأتي من تحت السرير، لتعلن بداية
فصلي الجديد في "مصحة" خيالي الخاص.

(9)

كان الفجر يزحف ببطء، لكنه لم يحمل معه نوراً، بل حمل وضوحاً قاسياً لكل العيوب في غرفتي. كنتُ أقف أمام خزانة ملابس أمي المتهالكة، يداي ترتعشان وعقلي يصرخ بي أن أتوقف، لكن صوتاً آخر في أعماقي كان يهمس: "اهرب.. السفر هو الحل الوحيد..". "هؤلاء الناس سيقتلونك إن بقيت

بدأتُ أبحث في الأدراج الصغيرة، أنبش في ذكريات امرأة لم تعرف من الدنيا سوى الشقاء. وجدتُ علبة مخملية قديمة، فتحتها بلهفة فارتدّ ضوءها الباهت على وجهي. كان "خاتم زواجها" من أبي، "وقطعة ذهبية بسيطة كانت تخبئها لـ"الزمن

ده تمن التذكرة يا معتز.. ده تمن الهروب من التليجرام، ومن "الديون، ومن الهلاوس"، قلتُ لنفسي وأنا أقبض على الذهب بقوة حتى غرزت حوافه في كفي

"بتعمل إيه يا معتز؟"

تجمدتُ في مكاني. كان الصوت واهناً، مشروحاً، يقطر خيبة. التفتُ ببطء لأجد أمي واقفة عند باب الغرفة، وجهها يبدو أكبر بعشر

سنوات من ليلة أمس. كانت تنظر إلى يدي المقبوضة، ثم إلى الدرج
المفتوح.

أنت بتسرقني يا ابني؟ بتسرق ذهب أمك اللي شالته عشان يوم "موتها؟" سألت، ولم يكن في صوتها غضب، بل كان فيه "موت" كامل.

أنا مش بسرقتك! أنا بنقذ نفسي!" صرختُ فيها بهستيريا، والذهب لا يزال محبوساً في يدي. "عاوزاني أستنى لما يججوا يجرجروني للسجن؟ عاوزه تشوفي ابنك ورا القضبان؟ أنا لازم أسافر.. لازم
"أختفي"

اقتربت مني بضع خطوات، وعيناها تفيضان بدموع لم تعد تجف.
"تسافر فين بفلوس حرام؟ أنت فاكِر إن الهروب هيصالح اللي انكسر؟ أنت مريض يا معتز.. أنت محتاج علاج، مش محتاج سفر.
رجّع الخاتم يا ابني، ده ريحة أبوك، دي الحاجة الوحيدة اللي فاضلة
"لي منه".

ضحكتُ ضحكة مريرة، ضحكة تشبه عواء الذئب الجريح. "أبويا؟ أبويا سابنا ومشي! سابني في الدنيا دي لوحدي مش عارف أكون كفاية لأي حاجة! آية وزين كانوا أحن عليّ منه ومنك! على الأقل
"إفي حلمي كنت راجل.. هنا أنا ولا حاجة

آية وزين تانى؟" صرخت أمي وهي تلطم خدها. "فوق يا معتز! "
أنت بتضيع نفسك عشان أوهام! رجّع الذهب وإلا هصوت وألمّ عليك
"الناس!"

في تلك اللحظة، عميت بصيرتي. شعرتُ أن أمي هي "القيد" الذي
يمنعني من الوصول لبر الأمان. دفعتها بيدي لكي أخرج من الغرفة.
لم تكن دفعة قوية، لكنها كانت كافية لتسقطها أرضاً، ولتكسر معها
آخر ذرة احترام كانت تكنّها لي.

سقطت أمي، ولم تصرخ. نظرت إليّ من الأرض، نظرة لم أنسها ما
حييت. نظرة خلت من الأمومة تماماً، وحلّ محلّها "الرعب" ممن
أصبح ابنها.

خد الذهب يا معتز.. " قالت بصوتٍ ميت. "خده واهرب.. بس "
اعرف إنك مش هتهرب من نفسك. الغربة مش هتمسح اللي في
". عقلك، والمرض اللي جواك هياكلك في أي مكان تروحه

خرجتُ من البيت والذهب في جيبي، والدموع تحرق عيني. كنتُ
أمشي في الشارع وأنا أشعر أنني "مسيحٌ دجال" يهرب من خطيئته.
لم أعد أسمع صوت زين، ولم تعد رائحة آية تطاردني. كان هناك
فقط صوت تحطم قلب أمي، وصوت خطواتي الهاربة نحو مجهولٍ
. أعرف يقيناً أنه لن يرحمني

"لقد بعثُ "ريحة أبويا" عشان أشتري "وهم النجاة

وفي تلك اللحظة، أدركتُ أنني لم أعد بطلاً في رواية كفاح، بل أصبحت "الذئب" في تراجيديا نهايتها السواد

خرجتُ إلى شوارع القاهرة والذهب المسروق يزنُ ثقلاً في جيبِي، لكنه لم يكن أثقل من الخزي الذي يسكن صدري. كانت المدينة تبدو لي اليوم كوحشٍ من الإسمنت والضجيج، مئات الوجوه تمرُّ بي كأنها أشباحٌ بلا ملامح. الشمس كانت حارقة، وكأنها تسلطُ ضوءاً كاشفاً على عورة نفسي المنكسرة

كنتُ أمشي بلا وجهة، في شوارع وسط البلد المكتظة. وفجأة، توقف قلبي عن الخفقان

هناك.. عند زاوية الطريق، كانت تقف بظهرها. نفس الطول، نفس انحناءة الكتف، ونفس العطر الذي اخترعه أنفي ليميزها.. آية

آية!" صرختُ بأعلى صوتي، مخترقاً ضجيج السيارات وأصوات الباعة

لم تلتفت. ركضتُ نحوها بجنون، أصطدمُ بهذا وأدفعُ ذاك، والناس ينظرون إليّ كأنني مجنونٌ هاربٌ من مشفاه. أمسكتُ بكتفها وأدرتها إليّ بلهفة العاشق الذي عاد من الموت

"...آية.. أنا عارف إنك مش حلم! قولي لهم إنك"

تلاشت الكلمات على شفتيّ. لم تكن هي. كانت فتاة غريبة تماماً،
نظرت إليّ بذعرٍ مشوبٍ بالاحتقار، وصرخت في وجهي: "أنت
"!مجنون؟ سيب إيدي وإلا هلمّ عليك الناس

تراجعتُ للخلف والدموع تحرق عيني. "أنا آسف.. افكرتك حد
".تاني

ضحك شابّ كان يمر بجوارنا وقال بسخرية: "شكله شارب حاجة
".الصبح ده يا أنسة، سيبك منه

أكملتُ طريقي ورأسي يكاد ينفجر. المدينة كلها أصبحت "آية". كل
فتاة ترتدي طرحة بيضاء هي آية، كل طفل يضحك في يد أمه هو
".زين". بدأتُ أسمع أصواتهم تتداخل مع أبواق السيارات

"!بابا.. بابا.. كورة"

"معتز.. فوق يا حبيبي، إحنا مستنيينك"

وقفتُ في منتصف ميدان التحرير، وأمسكتُ برأسي بين يديّ. بدأتُ
أحدث بصوتٍ مسموع، لم أعد أهتم بمن حولي

أنتم فين؟ ليه بتعملوا فيّ كدة؟ لو أنتم خيال ليه ريحتكم لسه في "
"مناخيري؟ ليه ملمس إيديك يا زين لسه على كتفي؟

تجمع حولي قلة من الفضوليين

مالك يا ابني؟ فيك حاجة؟" سألني رجل مسن بعطفٍ زائف"

نظرتُ إليه بعينين زائغتين وقلت له: "ابني ضاع.. ابني ومراتي
".تاهوا في حلم، وأنا مش عارف أرجع لهم

هز الرجل رأسه بأسى وهمس لمن بجواره: "يا حول الله، شاب زي
".الورد وعقله طار. تلاقيه من كتر الضغط والفقر

هربتُ منهم. هربتُ من نظرات الشفقة التي كانت تقتلني أكثر من
نظرات الاحتقار. دخلتُ زقاقاً ضيقاً وارتميتُ على الرصيف. أخرجتُ
الذهب من جيبي ونظرتُ إليه. هذا المعدن اللعين هو ثمن خيانتني
.لأمي، وهو ثمن تذكرتي لبلدٍ لا أعرف فيه أحداً

أدركتُ في تلك اللحظة أنني "غريب" في مدينتي. غريب عن نفسي،
وعن بيتي، وعن ذكرياتي. لم يعد هناك مكان ينتمي إليّ سوى ذاك
.الحلم الذي يرفض أن يغادرني

نظرتُ إلى السماء التي بدأت تتلون بلون الغروب الكئيب، وقلتُ في
سري: "يا رب، لو كان ده جنون، كمله عليّ وخليني أشوفهم للأبد.
".ولو كان ده واقع، ارحمني وخذني لعندهم

لكن الواقع لم يرحمني. الواقع كان يجهز لي فصلاً جديداً من العذاب؛
فصل الهروب النهائي خلف البحار، حيث لا يطاردني الدائنون، بل
تطاردني أشباجي في صمتٍ لا يقطعه سوى صراخٍ روحي

جلستُ في مقهىٍ شعبيٍ تفوح منه رائحة التبغ الرخيص واليأس
المتراكم، بعيداً عن أعين الدائنين وأعين أمي التي أصبحت أخشاها
أكثر من السجن. كان المال الذي جنيته من بيع ذهب أمي يحرق
جيبِي، وكأنه قطعٌ من جمرٍ مسروق. كنتُ أنتظر "المخلص"، الرجل
الذي وعدني بـ "فيزا" وتذكرة طيران لبلدٍ أوروبي بعيد، حيث تنتهي
لغتي ويبدأ نسياني.

"أنت معتز؟"

جاء الصوت غليظاً، يقطر لؤماً. رفعتُ رأسي لأرى رجلاً بملامح
حادة، يرتدي بذرة توشي بالرسمية الزائفة

أيوه.. أنت من طرف المعلم صبري؟" سألتُ بصوتٍ حائلٍ
التماسك لكنه خانني بالعرشة

جلس الرجل ووضع حقيبة صغيرة أمامه. "صبري قالي إنك
مستعجل، والورق اللي طلبته بيخلص في المطابخ' العالية. بس
".التكلفة زادت يا بطل، الحرب في أوروبا خلت الحدود نار

بدأ قلبي يدق بعنف. "أنا معايا اللي اتفقنا عليه.. ده كل اللي أملكه
".في الدنيا

أخرجتُ رزمة المال، ثم شقاء أمي وذكريات أبي، ووضعتها تحت الطاولة بخرقٍ وهوان. سحبها الرجل ببراعة، وعدّها بنظراتٍ خبيرة، ثم ابتسم ابتسامة صفراء

تمام.. خليك هنا، هطلع المكتب اللي ورا السنترال أجيب لك "الباسبور" بالتأشيرة، عشر دقائق وأكون عندك. متحركش

مضت العشر دقائق.. ثم عشرون.. ثم ساعة. بدأتُ أشعر ببرودةٍ تسري في أطراف رغم حرارة الجو. المقهى بدأ يفرغ من زبائنه، والنادل ينظر إليّ برؤيةٍ قمتُ من مكاني بخطواتٍ متعثرة، وذهبتُ للمكتب الذي أشار إليه. طرقتُ الباب، فخرج لي رجلٌ عجوزٌ لا يعرف عما أتحدث

مكتب إيه وتأشيرة إيه يا ابني؟ ده مخزن كراسي قديمة.. الرجل "اللي كان معاك ده 'نصاب' ومعروف في المنطقة هنا بياخد الفلوس". ويهرب من الباب الخلفي

"وقعت الكلمة على أذني كأنها رصاصة." نصاب

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وسط الشارع، ضحكةً هستيرية جعلت المارة يتراجعون عني خوفاً. النصاب الذي باع الأوهام للناس على "تليجرام"، سقط في فخ نصابٍ أكثر وضاعةً منه. لقد ضاع الذهب، وضاع المال، وضاعت فرصة الهرب

أصبحتُ الآن وحيداً تماماً، بلا مال، وبلا كرامة، وبخطيئةٍ لا تُغفر
تجاه أمي.

"معتز.. أنت ضعت يا حبيبي"

سمعتُ صوت "آية" يهمس في أذني، لكنه لم يكن صوتاً حنوناً هذه
المرة، كان صوتاً مليئاً بالرتاء. شعرتُ بيدٍ صغيرة تمسك بطرف
قميصي.. التفتُ بلهفة، تمنيتُ أن أرى "زين"، تمنيتُ أن يكون كل
هذا كابوساً وسأستيقظ منه في حضنهما.

لكن لم يكن هناك سوى قطةٍ جائعة تتمسح بي، وشارعٍ مظلم يبتلع
ما تبقى من إنسانيتي.

مشيتُ في الشوارع لا أعرف إلى أين أذهب. لم أعد أملك ثمن
المواصلات للعودة. لم أعد أملك الجرأة للنظر في وجه أمي. سقطتُ
في بئرٍ عميق، بئرٍ حفرتَه بيدي، والآن أنا في قاعه، أرى النجوم
بعيدة جداً، وأسمع صدى ضحكات "زين" تتلاشى في العدم.

"لقد أصبحتُ "لا شيء".

لا كافياً للحياة، ولا كافياً للموت، ولا كافياً حتى للهروب

مضت ثلاثة أيام وأنا أفترش أرصفة الشوارع الجانبية، أقتات على بقايا الخبز وكسرات الكرامة التي تركها لي المارة. لم أعد أخاف من الدائنين، فلامحي التي تغيرت، ولحيتي التي نبتت بشكلٍ فوضوي، وعينيّ الغائرتين، جعلتني شبحاً لا يعرفه أحد. كنتُ أجلس في ركنٍ مظلمٍ بجوار محطة رمسيس، أرسمُ بأصابعي على التراب وجه "زين"، ثم أمسحه بسرعة قبل أن تبدأ الهلوس في الصراخ داخل رأسي.

"أنت لسه هنا يا بطل؟"

جاء الصوت من رجلٍ يرتدي معطفاً طويلاً، كان يراقبني منذ ساعات. نظرتُ إليه ببلادة، لم يعد فيّ طاقة للخوف.

مشيتك بتقول إنك بايع الدنيا.. وده النوع اللي بندور عليه،" قالها " وهو يجلس بجانبني ويدفع لي بسيجارة

أنا مش بايع الدنيا.. أنا الدنيا هي اللي باعتني،" قلتُ بصوتٍ " مبجوح، صوتٍ لم يعد يشبه صوت "معتز" الذي كان يحلم بأداب عين شمس.

تحب تسافر؟" سألني بنبرةٍ خبيثة. "بس مش بفيزا وتأشيرة " ومكتب.. السفر اللي بجد، السفر اللي ميرجعش منه غير اللي مكتوب له عمر جديد. مركب في عز الليل، وشوية شباب زيك، "وأوروبا قدامك.. يا تعيش ملك، يا تموت شهيد الرزق

ضحكتُ بمرارة. "شهير الرزق؟" قلتُ له وأنا أنفث دخان السيجارة.
"أنا مش عاوز أروح عشان أعيش ملك.. أنا عاوز أروح عشان
ملقيش نفسي هنا. الموت في البحر أهون مية مرة من الموت في
". عين أمي اللي سرقتها

أدركتُ في تلك اللحظة أن هذا هو "قرار الانتحار البطيء". أنا لا
أملك المال، لكن هؤلاء السماسرة يحتاجون أحياناً لـ "أفارقة" أو
"عرب" شباب ليعملوا على المركب في مقابل سفرهم، أو ربما
سأعرض عليه بيع ما تبقى من جسدي. المهم أن أغادر هذه الأرض
التي أصبحت تضيق عليّ حتى خنقت أنفاسي

"معتز.. متسيناش وتغرق"

ظهرت لي "آية" في خيالي، كانت ترتدي ثوباً أسود هذه المرة،
تمسك بيد "زين" الذي كان يبكي بلا صوت. نظرتُ إليهما ببرودٍ
مرعب

أنتم اللي سيبتوني الأول، "همستُ لهما. "أنتم كنتم كذبة، وأنا "
"بقيت الحقيقة الوحيدة المرة

اتفقتُ مع الرجل. سأتحرك مع "الفوج" القادم نحو السواحل
الشمالية في الفجر. لم يكن معي حقيبة، ولم يكن معي وداع. تركتُ
خلفي أملاً لا أعرف إن كانت ستسامحني يوماً، وديوناً لن تُسد،
وحلماً جميلاً قتلني حين اكتشفتُ زيفه

مشيتُ نحو وسيلة النقل التي ستحملنا نحو "مركب الموت". كنتُ أشعر ببرودةٍ غريبةٍ في قلبي، برودةٍ تجعلني لا أبالي بالأمواج أو بقرش البحر. كنتُ أقول لنفسي: "لو غرق المركب، هشوف آية". وزين في الجنة بجد.. ولو وصلت، هكون هربت من معتز القديم

لكنني كنتُ واهماً. الغربية لم تكن حلاً، بل كانت مجرد زنزانة أوسع. والهرب لم يكن نجاة، بل كان انتحاراً مؤجلاً، يبدأ بترك الوطن، وينتهي بفقدان الذاكرة في مصحةٍ غريبة

تحركت الحافلة، ونظرتُ من النافذة لنور القاهرة الخافت الذي بدأ يبتعد

"وداعاً يا معتز،" قلتُ لنفسي. "الرحلة بدأت.. ونهايتها السواد"

كانت الرطوبة تنهش العظام، ورائحة الملح في هواء "بلطيم" تمتزج برائحة العرق المنبعث من أجسادٍ مكدسة في مخزنٍ مهجور بالقرب من الشاطئ. كنا أكثر من خمسين نفساً، ننتظر في الظلام الدامس، لا يكسره سوى ضوء سيجارة "السمسار" الذي كان ينظر إلينا كأننا رؤوس ماشية ننتظر الذبح، لا كبشرٍ يدفعون أرواحهم ثمناً للهروب

المركب وصل.. الكل يتحرك في صمت، اللي هيطلع منه صوت "هيرجع في شوال"، قالها السمسار بنبرةٍ باردة جعلت الرعب يدب في القلوب

تحركنا كالأشباح نحو الشاطئ. الرمال كانت غائرة تحت أقدامنا، وكأن الأرض نفسها تحاول التشبث بنا، تمنعنا من الانتحار الجماعي في عرض البحر. عندما وصلنا إلى حافة الماء، رأيتُ "المركب" .. لم يكن سوى خشبة مهترئة تتلاعب بها الأمواج، لا تصلح لحمل عشرة أفراد، فكيف لها أن تحملنا جميعاً؟

يلا.. واحد ورا الثاني!" صرخ المهرب وهو يجمع "الإكراميات" " الأخيرة قبل الصعود

وصل الدور إليّ. تحسستُ جيبي، لم أكن أملك مالاً، لكن يدي اصطدمت بشيءٍ صلبٍ وبارد. إنه "خاتم والدي". كنتُ قد خبأته في بطانة قميصي، بعيداً عن أعين النصابين في القاهرة، ظناً مني أنه سيكون تميّتي في الغربة. لكن المهرب أمسك بياقتي بعنف

فين نصيبك؟ مفيش حد بيركب بلاش هنا،" قالها وهو يوجه نصل " سكينه نحو وجهي

أخرجتُ الخاتم بيدٍ ترتجف. لمع المعدن تحت ضوء القمر الشاحب، وكأن روح أبي تصرخ في وجهي للمرة الأخيرة. كان هذا الخاتم هو الشيء الوحيد الذي لم أسرقه، الشيء الوحيد الذي ورثته بكرامة

ده ذهب عيار 21.. خده وسيبني أركب، " قلتُ بصوتٍ مكسور، " شعرتُ معه أنني أبيع شرفي، لا مجرد قطعة معدن

خطف المهرب الخاتم من يدي، عضّ عليه بأسنانه ليتأكد من جودته، ثم دفعتي بقوة نحو المركب. "اطلع.. غرقك أهون علينا من رجوعك."

ركبتُ المركب، وجلستُ في القاع وسط الزحام. كنتُ أشعر بفراغ مرعب في إصبعي، وفراغ أكبر في روحي. ببيع الخاتم، انقطعت آخر صلة لي بـ "معتز" الإنسان. لم أعد ابناً لأحد، ولم أعد أحمل ذكراه. أصبحتُ مجرد رقمٍ في رحلةٍ مجهولة

"معتز.. أنت بعث ريحة أبوك للغرق"

سمعتُ صوت "آية" يأتي من وسط الأمواج. كانت تقف على الماء، تحمل "زين" الذي كان ينظر إليّ بعينين واسعتين ممتلئتين بالرعب امشوا من هنا! سيبوني في حالي!" صرختُ في عقلي، وأغمضتُ " عيني بقوة

بدأ المحرك في الدوران، واهتز المركب تحتنا كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. نظرتُ نحو الشاطئ الذي بدأ يبتعد، نحو الأضواء الخافتة لبلدي التي لم تكن لي وطناً، بل كانت زنزانة

في تلك اللحظة، لم أكن أحلم بآداب عين شمس، ولا بشعار بمستقبلٍ
باهر. كنتُ أحلم فقط بأن يبتلعني الموج بسرعة، لأنني أدركتُ أنني
حتى لو وصلتُ لشواطئ أوروبا، سأصل بجسدٍ فارغ، بلا قلب، وبلا
ذكرى، وبلا هوية.

لقد بعثُ "الخاتم" لأشتري "الوهم" .. والآن، أنا والوهم نواجه
البحر وحدنا

(10)

لم يكن البحر غداراً كما يقولون في الروايات، بل كان صادقاً في
قسوته. كان يخبرنا بوضوح أننا لا ننتمي إليه، وأن أجسادنا المنهكة
بالديون والندم ليست سوى "حمولات" زائدة سيلفظها في قاعه
عاجلاً أم آجلاً. تحول الزرق الهادئ في لمح البصر إلى سوادٍ دامس
يزار كالسباع، وبدأت الأمواج تضرب جنبات المركب الخشبي
المتهاك كأنها مطارق عملاقة تهوي على رؤوسنا.

"!المية بتدخل! افرغوا المية بسرعة"

تعالت الصرخات وسط العتمة. تشابكت الأيدي، واختلطت دموع
الخوف بملوحة البحر. كنتُ جالساً في زاوية ضيقة، والمياه الباردة

غطت قدمي، لكنني لم أتحرك. كنتُ أنظر خلفي، نحو الأفق حيث
تلاشت أضواء الوطن تماماً

في تلك اللحظة، لم أرَ الساحل، بل رأيتُ وجه أمي وهي تسقط على
الأرض في غرفتها. رأيتُ نظرتها الأخيرة لي وهي تودع شرفها
الذي سرقتُه في قطعة ذهب

سامحيني يا أمي.. أنا مكنتش كفاية حتى إني أكون ابن صالح، "
همستُ والرياح تبتلع صوتي

فجأة، اهتز المركب بقوة عنيفة مالت بنا جميعاً نحو اليمين. صرخت
امرأة بجانبني وهي تحتضن طفلها، وفي تلك اللحظة.. رأيتُهما

تحت ضوء البرق الذي شقَّ السماء، ظهرت "آية" وسط الموج.
كانت تطفو فوق الماء بثوبها الأبيض، ملامحها هادئة بشكلٍ
مرعب، كأنها جزء من هذا البحر الغامض. كانت تمسك بيد "زين"،
الذي كان يمدُّ يده الصغيرة نحوي وسط الرذاذ المتطاير

تعالَ يا معتز.. هنا مفيش ديون.. هنا مفيش تليجرام.. هنا إحنا "
مستنيينك

كان صوتهما يأتي من أعماق الماء، أنعم من الحرير وأقوى من العاصفة. مددتُ يدي نحو الفراغ، نحو الموج الذي كاد يبتلع المركب. كنتُ أريد أن أقفز، أن ألقى بنفسي في حضن الخيال الذي دمر حياتي، لعل الموت يكون هو "الوصول" الذي فشلتُ في تحقيقه حياً.

معتز! امسك في الحبل يا مجنون!" صرخ شابٌ كان يجلس " بجواري وهو يجذبني للخلف قبل أن أسقط

"نظرتُ إليه بعينين زائغتين. "سيبني.. مراتي وابني مستنيين تحت نظر إليّ الشاب برعب، ثم تركت يده كتفي وهو يتمتم: "ده اتجن..". الغرق سكن عقله قبل ما يسكن جسمه

استمرت العاصفة لساعات، كانت كأنها دهرٌ من الرعب. وفي كل مرة كان المركب يرتفع ثم يهوي، كنتُ أرى "نظرة الوداع" في عيون الركاب من حولي؛ وداع للأهل، وداع للأحلام، وداع للحياة

لكن نظرتي أنا كانت مختلفة. كانت نظرة وداع لـ "معتز" الذي كان يحلم. ودعتُ الطالب المتفوق، والمصمم المبدع، والزوج المحب. ودعتُ كل النسخ الجميلة مني التي لم توجد أبداً إلا في خيالي المريض.

ومع هدوء العاصفة النسبي في الفجر، كانت روحي قد غرقت
بالفعل، رغم أن جسدي لا يزال يطفو. نظرتُ إلى يدي التي كانت
تحمل خاتم والدي، والآن هي خالية حتى من الجلد الذي تهرأ من
الملوحة.

لقد نجونا من الغرق الجسدي هذه المرة، لكنني أدركتُ ونحن نقترُب
من "سماء رمادية" غريبة، أنني تركتُ كل ما يربطني بالحياة على
ذلك الشاطئ البعيد.

نحن لم نهاجر يا زين.. انا فقط نقلت قبوري من أرضٍ دافئة إلى بحرٍ
بارد

لم تكن شمس أوروبا دافئة كما تخيلتها وأنا جالسٌ على رصيف
"محطة رمسيس". استيقظتُ والرمال الباردة تملأ فمي، وجسدي
يرتجفُ تحت قميصٍ مبللٍ بالملوحة والندم. لم تكن هناك موسيقى
ترحيب، ولا سجاد أحمر للمكافحين؛ كان هناك فقط صرير أمواج
البحر الأبيض المتوسط وهي تقذف بقايا أحلامنا على شاطئٍ صخريٍ
موحش في جنوب إيطاليا.

"إيلا.. تحركوا! ارفعوا أيديكم فوق"

جاءت الصرخات بلغةٍ خشنَةٍ لا أفهم منها سوى نبرة التهديد. كانت
أضواء الشرطة الزرقاء تخرق ضباب الفجر، لترسم ظلالاً مشوهة
لأجسادنا الهزيلة وهي تُساق كقطيعٍ من الماشية نحو حافلات
حديدية باردة.

نظرتُ إلى السماء.. كانت رمادية، ثقيلة، كأنها قطعة من الإسمنت المسلح تُطبق على صدري. لم أرَ فيها الله، ولا رأيت فيها أملاً؛ رأيتُ فيها فقط وجه أمي وهي تدعو عليّ أو لي، لا أعرف.

زجوا بنا في مركز احتجازٍ يفوح منه برائحة المعقمات واليأس المقدس. جلستُ في ركنٍ مظلم، أضمتُ ركبتي إلى صدري. في تلك اللحظة، شعرتُ بـ "الغربة المزدوجة"؛ غربة المكان الذي لا أعرف لغته ولا يعرف كرامتي، وغربة الروح التي تركتها هناك، في غرفتي القديمة وسط ديون التليجرام.

"معتز.. البرد هنا بياكل العضم يا حبيبي"

ظهرت لي "آية" فجأة، كانت تجلس بجواري على الأرضية الخرسانية الباردة، ترتدي معطفاً ثقيلاً وتغطي رأس "زين" بوشاحٍ صوفي. كانت تبدو حقيقية لدرجة أنني مددتُ يدي لألمس وجهها، فارتطمت أصابعي بجدار السجن البارد.

أنتي لسه هنا؟" همستُ بمرارة. "حتى هنا ملاحقاني؟ أنا هربت "

"عشان أنساكم، عشان أعيش من غير ما أحس إنني مجنون

ابتسمت آية بأسى، ولم ترد. أما زين، فقد كان ينظر من خلف
قضبان النافذة المرتفعة نحو السماء الرمادية، وكأنه يبحث عن
طائرته الورقية التي لم أشتريها له أبداً

بعد أسابيع من التحقيقات والمهانة، وجدت نفسي في الشارع..
"شبحاً" بلا أوراق، بلا هوية، وبلا مال. بدأت العمل في "الخفاء"،
في مطابخ المطاعم الرخيصة، أغسلُ الصحون لعشر ساعات يومياً
مقابل فتاتٍ لا يكفي لسد جوعي، ناهيك عن إرساله لأمي

يدي التي كانت تصمم الشعارات بلمسات الذكاء الاصطناعي في
حلمي، أصبحت الآن متشقة من الصابون والمواد الكيماوية.
أصبح يفكر فقط في كيفية تجنب وعقلي الذي كان يبني شركات
".الكاميرات" وعيون الشرطة

في إحدى الليالي، وأنا عائدٌ لمكاني الذي أنام فيه في قبوٍ رطب،
نظرتُ إلى انعكاس وجهي في زجاج محلٍ مغلق. لم أعرفني. كان
هناك رجلٌ عجوزٌ في العشرينات من عمره، بعينين غائرتين يملؤهما
السواد، وشعرٍ شابٍ قبل أوانه

ضحكتُ بصوتٍ مخنوق. لقد وصلتُ يا أبي.. وصلتُ لأوروبا التي
كان رفاقي يحلمون بها. لكنني لم أصل كـ "ملك"، بل كـ "طريد". لم
أصل كـ "مصمم"، بل كـ "آلة" لغسل القذارة

لقد كانت السماء رمادية فعلاً.. لأنني حملتُ غيوم القاهرة السوداء داخل صدري، ولم أتركها هناك. والآن، بدأتُ أشعر بشيءٍ جديدٍ ينمو بداخلي.. "صمتٌ" مخيف، وبدايةً لمرضٍ نفسي بدأ ينهش ما تبقى من عقلي في صقيع الغربية

لم أعد أحتاج للغة. في هذا القبو الرطب أسفل بناية قديمة في ضواحي "ميلانو"، سقطت الكلمات مني كما تسقط أوراق الشجر الميتة في خريف أوروبا البارد. لماذا أتحدث؟ ومن سيفهم لغتي المشوهة بالندم؟ الإيطاليون يرون فيّ مجرد "يدين" تغسلان الصحون وتفرغان القمامة، وأنا أرى فيهم مجرد "ظلال" تمرُّ بجانبني في عالم لا أنتمي إليه.

لقد بدأتُ أفقد القدرة على الكلام فعلياً. أحياناً أحاول نطق اسمي، فيخرج من حنجرتي صوتاً مبجوحاً غريباً، كأنه صادر من بئر مهجور. استبدلتُ الكلام بـ "الصمت"، وصار صمتي هو جداري الأخير الذي أحتمي خلفه من واقعٍ ينهشني كل يوم.

..لكن القبو لم يكن خالياً

"معتز.. ليه مش بتاكل؟ الأكل هيبرد يا حبيبي"

كان صوت "آية" يملأ أركان القبو المظلم. أراها هناك، جالسة على "مرتبة" قديمة وضعتها في الركن، ترتدي فستانها المنزلي البسيط الذي اخترعته لها في حلمي. وبجانبيها، كان "زين" يركض فوق

الأرضية الخرسانية، يضحك بصوت عالٍ ويرمي لي بـ "كرة"
. وهمية لا يراها أحد غيري

مش جعان يا آية.. التعب أكل روحي قبل جسمي، " رددتُ بصوتٍ "
مسموع، مخاطباً الفراغ أمام نافذة صغيرة لا تُطل إلا على أقدام
. المارة في الشارع

في إحدى المالي، وأنا عائد من عملي الشاق، توقفتُ أمام واجهة
محل ألعاب. رأيتُ سيارة صغيرة حمراء، تشبه تماماً تلك التي طلبها
مني زين في منامي. وقفتُ أخاطبها، أضحكُ لها، وأشير لـ "زين"
. الواقف بجانبها (في خيالي) ليرىها

. شفت يا زين؟ هجيبها لك أول ما أقبض، " قلتها بابتسامة عريضة "

التفتُ حولي لأجد سيدة إيطالية تمسك بيد طفلها وتنظر إليّ برعب
خالص. جذبت ابنها بعيداً وهي تتمتم بكلمات عن "المجازيب"
و"المهاجرين غير المستقرين عقلياً". لم يغضبني ذلك، بل شعرتُ
بالشفقة عليها؛ فهي لا ترى ما أراه، هي تعيش في عالم "الحقيقة"
. البارد، وأنا أعيش في "السراب" الدافئ

عدتُ إلى قبوي، وأغلقتُ الباب الخشبي المهترئ. جلستُ في الظلام،
وشعرتُ برغبة في البكاء، لكن دموعي كانت قد جفت منذ اليوم

الذي تركتُ فيه أُمي على بلاط الشقة. تذكرتُ الذهب.. تذكرتُ
.الخاتم.. وشعرتُ أن جسدي بدأ يتآكل من الداخل

المرض لم يكن في جسدي فقط، كان في عقلي الذي بدأ يرفض
التمييز بين الضوء والظلام. أصبحتُ أتحدث مع آية عن تفاصيل
يومي، عن الصحون التي كسرتها، وعن صاحب المطعم الذي
نهمني. كانت تهز رأسها بحنان، وتعدني بأن "الغد أفضل"، بينما أنا
.أعلم يقيناً أن الغد في هذا القبو لا يحمل سوى مزيداً من الرمادي

لقد كنتُ غريباً في إيطاليا، وغريباً عن نفسي. كنتُ أعيش "غربة
مزدوجة"؛ واحدة خلف الحدود، والأخرى خلف قضبان عقلي الذي
.أطبق عليّ للأبد

آية.. قولي لزين ينام.. الدنيا بقت ليل، "همستُ في الظلام، قبل أن "
أستسلم لنومٍ يشبه الموت، محاطاً بأشباحي التي صارت هي عائلتي
الوحيدة

كان الحبرُ هو الشيء الوحيد الذي لا يزال يربطني بالحقيقة، أو ربما
بما أتوهم أنه الحقيقة. في قبوي المظلم، وتحت ضوء مصباح وحيد
يرتجفُ كقلبي، كنتُ أجلسُ على الأرضية الباردة وأمامي قصاصاتُ
ورقٍ جمعتها من صناديق القمامة خلف المطعم. لم أعد أملكُ هاتفاً،
ولا تليجرام، ولا "بوتات" تبيعُ الوهم؛ لم أعد أملكُ سوى أصابع
.متخشبة من البرد، وقلمٍ يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة

..بدأتُ أكتب

..أمي الغالية"

أنا هنا في 'ميلانو'.. الجو جميل جداً، والبيت الذي أسكنه واسعٌ ويطلُّ على ساحةٍ خضراءٍ. سامحيني يا أمي على 'الخاتم'، سأعوضك عنه بذهبٍ يغطي جدران غرفتك. أنا أعملُ الآن في شركة كبرى للمعلوماتية، والجميع هنا يحترمون 'معتز هيثم'. لا تقلقي ".عليّ، أنا 'كفاية' جداً الآن

توقفتُ عن الكتابة، ونظرتُ إلى جدران القبو الرطبة التي تكسوها طبقة من العفن الأخضر. مسحتُ دمعاً سقطت فوق كلمة "كفاية" فمسحتها تماماً. كنتُ أعلمُ أنني أكذب، لكن الكذب على الورق كان أهون من مواجهة الحقيقة في المرآة. طويتُ الورقة وخبأتها تحت مرتبتي المليئة بالحشرات، لتتضمَّ إلى أخواتها من الرسائل التي لن تجد طريقها أبداً إلى مكتب البريد.

: "ثم أمسكتُ بورقةٍ أخرى، وبدأتُ أكتب لـ "آية

..آية حبيبتي"

لماذا تأخرتِ في المجيء اليوم؟ زين سأل عنك كثيراً. لقد اشتريتُ له المعطف الصوفي الذي أعجبك. البيتُ هادئٌ بدونهُ، وصوته وهو يركض في الردهة هو الموسيقى الوحيدة التي تُشعرنِي بأنني حي.

عودي بسرعة، فالبردُ هنا ينهشُ روعي ولا يدفئني سوى
".انتظارك"

نظرتُ بجانبِي، فرأيتُ طيفها واقفاً عند زاوية القبو، تهزُّ رأسها
.بحزنٍ وهي تنظر إلى الورقة

ليه بتكتب يا معتز؟" همس صوتها في عقلي. "إحنا هنا.. مش "
".محتاجين ورق

صرختُ فيها بصوتٍ مبجوح: "محتاج الورق عشان أتأكد إني مش
مجنون! عشان لما أموت هنا، يعرفوا إن كان لي عيلة.. إن كان لي
".!ابن اسمه زين

بدأتُ أكتب رسائل لـ "زين" أيضاً؛ أحكي له فيها عن "عين
شمس"، وعن "قصر الزعفران"، وعن والده الذي كان "بطلاً" في
روايةٍ لم تكتمل. كانت الرسائل تتراكم تحت المرتبة، يوماً بعد يوم،
".حتى أصبحتُ أنام فوق "تلة من الأوهام الورقية

كانت هذه الرسائل هي "صلاتي" الخاصة، وتوبتي المتأخرة. كنتُ
أعرفُ أن أمي ربما تظنُّ أنني ميت، أو أنني نسيتهُ في زحام
الغربة. لم تكن تعلمُ أن ابنها يقضي لياليه في كتابة اعتذاراتٍ لا
يملكُ ثمن طابعها البريدي، ويعيشُ حياةً زوجيةً كاملةً مع امرأةٍ من
.سرابٍ وطفلٍ من غبار

وفي إحدى الليالي، وأنا أضع رسالةً جديدةً تحت المرتبة، شعرتُ
بوخزةٍ قويةٍ في صدري. نظرتُ إلى يدي، كانت قد بدأت تصفرُّ،
ونفسي أصبح ثقيلًا كأن جبال إيطاليا كلها تجلسُ فوق رنتي

لازم أخلص الرسائل يا آية.. " همستُ وأنا أغمضُ عيني. "لازم "
أحكي لزين كل حاجة.. قبل ما الحبر يخلص.. وقبل ما النور
ينطفئ "

لم تكن الغربية هي المسافة بين القاهرة وميلانو؛ الغربية كانت في
تلك الرسائل التي تكدست تحت مرتبتي، تحملُ حقائق لم تحدث،
واعتذاراتٍ لن تُسمع، وحباً ضاع في زحام "مرضٍ" لم أعد أملكُ
قوةً لمحاربته

كانت رائحة بخار الماء الساخن في مطبخ المطعم تختلط برائحة
المنظفات القوية، لتخلق ضباباً كثيفاً حجب عني الرؤية. شعرتُ
برأسي يثقل، وكأن جبل "المقطم" قد انتقل فجأة ليستقر فوق
كاهلي. كانت يداي تتحركان آلياً وسط الصحون، لكن عقلي كان في
مكانٍ آخر تماماً

وفجأة.. رأيته

كان "زين" يقف وسط البخار، يرتدي ثياباً خفيفة لا تناسب صقيع
"ميلانو"، وكان يمد يده الصغيرة نحو قدور الماء المغلي وهو
يضحك

زين! لا! ابعد عن النار!" صرختُ بأعلى صوتي، واندفعتُ بجنون " نحو الفراغ. ارتطمتُ بطاولة الحديد، وسقطت عشرات الصحون لتتحطم من حولي بصوتٍ أيقظ المدينة كلها من غفلتها. شعرتُ ببرودة الأرض تلامس وجهي، وبصوت صاحب المطعم الإيطالي وهو يصرخ بغضب، قبل أن يغلفني سوادٌ حالك لا يشبه نوم الحالمين، بل يشبه إغماءة الموتى.

استيقظتُ على ضوءٍ أبيضٍ باهرٍ يمزق عينيّ. لم تكن سماء القاهرة، ولم يكن ضوء مصباح قبوي الخافت. كان ضوءاً بارداً، معقماً، يفوح برائحة "الفينيك" والأدوية. حاولتُ التحرك، لكنني شعرتُ بقيودٍ ناعمة تشدُّ معصميّ إلى جانبي السرير.

آية؟ أنتي فين؟" همستُ بصوتٍ جاف، يكاد يخرج من حنجرةٍ " محترقة.

"Stay calm, Moataz. You are in the hospital,"
جاء الصوت بالإنجليزية، هادئاً وبارداً كالمكان. كان طبيباً شاباً ينظر إليّ بشفقةٍ مهنية، وخلفه ممرضة تدون ملاحظاتٍ في لوح إلكتروني.

بدأ الطبيب يتحدث بلغةٍ لم أفهمها تماماً، لكنني فهمتُ نظراته. كانوا يتحدثون عن "انهيارٍ عصبي حاد"، عن "سوء تغذية مزمن"، وعن

"هلاوس بصرية وسمعية". بالنسبة لهم، أنا لست "معتز" الزوج
والأب والكاتب؛ أنا مجرد حالة طبية، مهاجر غير شرعي فقد عقله
من قهر الغربية

أنا مش مجنون.. " صرختُ في وجهه بالعربية، والدموع تنفجر "
من عيني. "ابني كان هناك! مراتي مستنياني في البيت! أنا بكتب
"إلها رسائل كل يوم

:نظر الطبيب للممرضة وهز رأسه بأسى. سمعته يهمس بكلمة
بارانويا. ثم أتبعها بكلمة .. "Paranoia"
فصام .. "Schizophrenia"

ضحكتُ بمرارة وهستيريا حتى كدتُ أختنق. فصام؟ هل يُسمون
"الوفاء" فصاماً؟ هل يُسمون الهروب من واقع قتلني "جنوناً"؟ لقد
كان تشخيصهم دقيقاً طبياً، لكنه كان "أعرج" إنسانياً. لم يدركوا أن
مرضي ليس خللاً في كيمياء الدماغ، بل هو "قهر" استوطن الروح
منذ اللحظة التي لم أجد فيها نفسي "كافياً" لأحمي بيتي وأمي

أعطوني حقنةً مهدئة. شعرتُ بالبرودة تسري في عروقي، وبدأتُ
ألوان الغرفة تذوب. رأيتُ آية تقف عند زاوية السرير، كانت تبكي
بصمت وهي تنظر إلى القيود في يدي

حتى هنا يا آية؟" همستُ وأنا أُغيب عن الوعي. "حتى هنا"
"عاوزين ياخدوكم مني؟ عاوزين يقولوا إنكم 'مرض'؟"

أغلقتُ عيني، وأنا أعلم أن المعركة القادمة لن تكون مع الدائنين أو الشرطية، بل ستكون مع الأطباء الذين سيحاولون "شفائي" من أجمل ما أملك.. سأحاربهم لأبقى "مجنوناً" بكم، لأنني في "عقلهم" سأكون وحيداً تماماً

لقد شخّصوا "قهري" يا زين.. لكنهم لم يعرفوا أنك الدواء الوحيد الذي يرفض قلبي أن يتقيأه

الحياة هنا، في "مصحة النسيان" بضواحي ميلانو، تمرُّ كشريط سينمائي صامت. أقسمُ أنني أحياناً أمسُ الهواء فأجده بارداً كالجليد، بينما عيناى ترى شمس "عين شمس" الدافئة تنعكس على الجدران البيضاء. لقد خصصوا لي غرفةً بنافاذة كبيرة، لكنها نافذة لا تُفتح، زجاجها سميكٌ يحول بيني وبين العالم، كأنه يخبرني: "أنت لست منهم، وهم ليسوا منك"

كنتُ أقضي الساعات الطويلة واطعاً جبهتي على الزجاج البارد، أراقبُ الحديقة العامة الملحقة بالمستشفى. هناك، خلف الزجاج، يركضُ الأطفال، وتضحكُ الأمهات، ويمشي العشاق تحت الأشجار

وفجأة.. رأيتُه

طفلاً صغيراً يرتدي سترة زرقاء، يطارد طائرة ورقية ملونة. قلبي
قفز من مكاني

"إزين! يا زين! أنا هنا"

بدأت أضرب الزجاج بكلتا يدي، أصرخ بكل ما أوتيت من قوة
خرساء. لم يسمعي أحد. الطفل استمر في الركض، و"آية" (أو من
تخيلت أنها هي) كانت تجلس على مقعد خشبي وتتنظر إليه بابتسامة.
غبشت الدموع رؤيتي، فبدأت أمسح الزجاج بيدي بجنون، محاولاً
تقريب الصورة، محاولاً كسر هذا الحاجز الذي يمنعني من احتضان
ابني.

دخلت الممرضة، ووضعت يدها على كتفي بلطف مشوب بالحنن
معتز.. اهدأ. لا يوجد أحد هناك تعرفه،" قالتها بلكنتها الإيطالية"
الثقيلة.

نظرت إليها، وشعرت برعب حقيقي. لقد بدأت أنسى الوجوه. حاولت
أن أتذكر وجه "أمي"، وجه المرأة التي دفعتها لكي أسرق ذهبها..
فلم أجد سوى غبامة رمادية. ملامحها الحقيقية، تجاعيد وجهها،
بحّة صوتها وهي تناديني "يا ابني" .. كل ذلك بدأ يتبخر، ليحل محله
وجه "آية" الصافي، وصوتها الرقيق

الذاكرةُ خائنةٌ يا معترز؛ فهي تمحو من جرحوك، لكي تبقي على "
"من أحبوك.. حتى لو كانوا خيلاً"

لقد أصبحت أُمي مجرد "فكرة" بعيدة، ذنبٌ قديمٌ أحاول الهروب منه.
أما آية وزين، فقد أصبحت "الواقع". أراهم في كل ركن من أركان
هذه المصححة. أرى آية تقف خلف الممرضة وهي تعطيني الدواء،
"تهزُّ رأسها لي كأنها تقول: "اشربه يا معترز، عشان نرجع البيت

في المساء، وأنا أنظر إلى انعكاس وجهي في الزجاج، لم أرَ نفسي.
رأيتُ رجلاً غريباً، بعينين زائغتين تحكيان قصصاً لم تحدث. سألتُ
نفسي: "هل أنا بطلٌ هذه الرواية؟ أم أنا مجرد شخصيةٍ ثانويةٍ في
"حلمٍ طويل؟"

أدركتُ أنني أتعافى من "الواقع"، وأغرقُ في "السراب". الأطباء
يظنون أن هدوئي هو علامةٌ تحسن، ولا يعرفون أنني أصبحتُ هادئاً
لأنني لم أعد وحيداً؛ فغرفتني الآن ممتلئةٌ بضحكات زين، وبهمسات
آية التي لا تتوقف

نظرتُ من خلف الزجاج للمرة الأخيرة قبل أن يغلقوا الأنوار. رأيتُ
القمر، وكان القمرُ في ميلانو يشبه القمر في القاهرة؛ وحيداً،
وبعيداً، ومحاطاً بظلامٍ لا ينتهي

بكرة هنخرج يا زين.. " همستُ في الزجاج، وطبعْتُ عليه قبلةً "
 تركتُ أثراً باهتاً من بخار أنفاسي. "بكرة هنروح الجامعة،
 وهنشترى الكورة، وهنكون كفاية.. بجد

الصمتُ في غرفتي بالمصحة لم يعد موحشاً؛ بل صار "مقدساً". لقد
 أدركتُ أخيراً أن الكلمات هي الفخ الذي نصبه لنا الواقع لكي يجرنا
 إلى وحله. لماذا أتحدث مع الطبيب الذي ينظر لساعته كل دقيقة؟ أو
 الممرضة التي تضع لي الطعام كأنها تطعم آلة؟ لقد قررتُ أن أهبَ
 صوتي لمن يستحقه فقط

منذ ثلاثة أيام، لم ينطق لساني بحرفٍ واحد أمام أي كائن "حقيقي".
 بالنسبة لهم، أنا دخلتُ في حالة "الذهول الفصامي"، لكن بالنسبة
 لي، أنا فقط أغلقتُ النافذة على ضجيجهم لكي أسمع همس "آية"
 بوضوح أكبر

الصمتُ ليس غياباً للكلمات، بل هو امتلاءً بالأرواح التي لا "
 يسمعها غيرك

بدأتُ طقوساً جديدة في صباح كل يوم. أستيقظ مبكراً، وقبل أن تأتي
 الممرضة، أقوم بغسل وجهي وتمشيط شعري بعناية فائقة. أطلبُ بـ
 "الإشارة" من المساعدين أن تكون ثيابي نظيفة ومكوية. كنتُ أقفُ
 أمام المرأة، أعدلُ ياقة قميص المستشفى الأبيض كأنها ياقة "بدلة
 زفاني" التي لم أرتدها أبداً في الواقع

شكلك عريس يا معتز، " قالت آية وهي تظهر خلفي في المرآة، " تضع يدها على كتفي. كانت ترتدي فستانها البنفسجي الذي كنتُ أحبه، وشعرها كان ينسدلُ بنعومةٍ لم تلمسها يدٌ من قبل

لازم أكون جاهز يا آية.. زين هيجي النهاردة؟" سألتها بقلبي، لأن " لساني لم يعد يتحرك حتى معها.
أومات برأسها بابتسامة: "طبعاً.. هو دلوقتي بيلبس جزمته الجديدة
".عشان يجيلك

كنتُ أجلسُ على الكرسي الخشبي الوحيد في الغرفة، منتصباً بظهري، عينيّ مثبتتان على الباب. كنتُ أنتظر "الموعد". لم أعد أرى جدران المصحة الباردة، كنتُ أرى "ردهة" واسعة في شقتنا المتخيلة بـ "عين شمس". كنتُ أرى الشمس تدخل من الشرفة، وأسمع صوت عصافير لم توجد يوماً في شتاء ميلانو.

دخل الطبيب، ومعه مجموعة من المتدربين. وقفوا حولي، يتحدثون عن "تدهور حالتي" وعن "فقدان التواصل البصري". لم أطرف بعيني. كنتُ أنظر من "خلالهم"، كأنهم ستائر شفافة لا تحجب عني. رؤية "زين" وهو يركض في الممر الخارجي

لا يستجيب للمؤثرات الخارجية،" قال الطبيب وهو يدون " ملاحظاته

ضحكتُ في سري. أي مؤثرات خارجية؟ هل يقصدون طعامهم البارد
وأسئلتهم السخيفة؟ لم يدركوا أن "المؤثر" الوحيد في حياتي الآن
هو ضحكة زين التي بدأتُ أسمعها تقترب من الباب.

تلاشت ملامح أمي تماماً من ذاكرتي في هذا الفصل. لم أعد أتذكر
اسمها، ولا شكل وجهها. لقد مسح عقلي كل ذكرى قد تجلب لي
"الألم" أو "الذنب"، لكي يفسح مجالاً أكبر لهذا اللقاء المستحيل. أنا
الآن "رجلٌ بلا ماضٍ"، وبلا "أهل"، وبلا "وطن". أنا مجرد عريسٍ
ينتظر عائلته في محطةٍ خارج الزمن.

عندما غربت الشمس، وانصرف الأطباء، شعرتُ بيدٍ صغيرة تمسك
بإصبعي. نظرتُ للأسفل، لم يكن هناك أحد تراه العين البشرية،
"لكنني شعرتُ بدفء كف "زين

"وحشتني يا بابا.. يلا نلعب كورة؟"

أومأتُ له برأسي، ودمعةٌ وحيدة سقطت على قميصي المكوي. في
تلك اللحظة، كنتُ أسعد "مجنون" في العالم. لقد انقطعتُ عنهم
جميعاً.. لكي أتصل بكما للأبد

اللون الأبيض ليس لونا؛ إنه "الفراغ". في هذه الغرفة، كل شيءٍ
أبيض: الجدران، الأسرة، ملابس المرضيين، وحتى ملامح الوجوه
التي تطلُّ عليّ كل صباح. شعرتُ أن جسدي بدأ يذوبُ في هذا
البياض، لم أعد أشعر بأطرافي، ولم يعد لي ثقلٌ فوق الأرض. لقد

أصبحت "وعاءً فارغاً"، سقطت منه كل الذكريات الحقيقية، ولم
"يتبقَّ فيه سوى "عطر آية" و"ضحكة زين

"Signore Moataz? Can you hear me?"

سألني الطبيب وهو يسלטُ ضوءاً صغيراً على حدقة عيني. نظرتُ
إليه ببرود. "معتز؟" من هو معتز؟ هذا الاسم يبدو لي كذكرى لجارٍ
قديم رحل منذ زمن. أنا لستُ معتز. أنا "أبو زين". أنا الرجل الذي
ينتظر عند محطة القطار ليعود إلى بيته في "عين شمس". لكن
لساني لم يتحرك ليشرح له ذلك؛ فالشرحُ اعترافٌ بوجودهم، وأنا لم
أعدُ أَعترفُ بوجود أحدٍ سواكما

"عندما تنسى اسمك، تبدأ روحك في التحرر من قيود الأرض"

لقد بدأ "العد التنازلي". أشعرُ بقلبي يخفقُ ببطء، كأنه ساعةٌ قديمة
نفدت بطاريتها. الممرضات يتحدثون من حولي كأنني "قطعة أثاث

إنه يرفض الطعام تماماً.. يعيشُ على المحاليل فقط،" قالت "

إحداهن وهي تغير الكيس البلاستيكي المعلق فوق رأسي

يا له من مسكين.. يبدو أنه خسر كل شيء في بلده قبل أن يأتي
إلى هنا،" ردت الأخرى بشفقةٍ تثيرُ غثياني

لم أخسر شيئاً يا حمقاء. أنا الآن أملك كل شيء

نظرتُ إلى ركن الغرفة، كانت "آية" تجلسُ على الكرسي، تضعُ يدها على بطنها وكأنها لا تزال حاملاً بـ "زين" لأول مرة. كانت تنظر إليّ بعينين تلمعان بدموعٍ من نور.

"قربنا يا معتز.. المركب اللي هيودينا 'هناك' وصل"

مركب؟" سألتها في خيالي. "أنا بخاف من المركب يا آية.. البحر " "كان أسود وبارد

ابتسمت وهي تقتربُ من سريري، ولمست جبھتي بيدٍ باردة كالتلج لكنها أرقُ من النسمة. "المركب ده مش في المية.. المركب ده في السما. ملوش صوت، ومبيغرقش

بدأتُ أشعرُ بأن الغرفة تضيق، وأن الجدران البيضاء بدأت تتلاشى لتكشف خلفها عن "سحابٍ" كثيف. لم أعد أسمع أصوات الممرضات، ولا صرير العربات في الممر. كنتُ أسمعُ فقط "زين" وهو ينادي بصوتٍ خافت، كأنه يهمسُ لي من خلف ستارٍ رقيق "بابا.. أنا جهزت الشنطة.. يلا بينا؟"

أغلقتُ عينيَّ بقوة. لم يعد هناك "ميلانو"، ولا "إيطاليا"، ولا "مستشفى". كنتُ أقفُ في صالة شقتنا القديمة، وصورة والدي معلقة على الحائط، لكنه في الصورة كان يبتسم.. يبتسمُ لي لأول مرة بصدق.

لقد بدأتُ أنسى كيف أتفسُّ هواءهم الملوث بالدواء. رئتاي لم تعد تقبلان سوى "هواء الحلم". أنا الآن في "مصحة النسيان"، أنسى "كل ما هو "حقيقي" لكي أتذكر كل ما هو "أبدي".

..العد التنازلي بدأ يا زين.. عشرة.. تسعة.. ثمانية

بأقي خطوات قليلة، ونعبرُ تلك الفجوة بين "هنا" الموحشة، وبين "هناك" حيث لا يجرؤ الفشل على الاقتراب منا

على سرير بارد في زاوية منسية بمشفى "ميلانو"، كان جسد "معتز" يرسم خطأ باهتاً على جهاز مراقبة القلب. الأصوات من حوله تلاشت، ورائحة المعقمات تبخرت، وحلّ محلها فجأة.. عطر الياسمين، وصوت تصفيقٍ حاد يرجُّ أركان المكان

لم يكن هناك أطباء، ولم تكن هناك قيود

كان معتز يقفُ بزهوٍ وسط "قصر الزعفران" بجامعة عين شمس. كان يرتدي رداء التخرج الأسود، وقبعة التفوق فوق رأسه. الشمس كانت دافئة، تداعبُ وجهه بلمساتٍ حانية، وكأنها تعتذرُ له عن كل شتاءٍ قضاه في صقيع الغربية

"!الآن.. نكرمُ الطالب المثالي والمبدع: معتز هيثم"

مشى بخطواتٍ واثقة فوق المنصة. لم تكن قدماه ترتعشان، ولم يكن يخشى نظرات الناس. التفت نحو الصفوف الأولى، فرأهما. آية كانت

ترتدي فستاناً أبيضاً كأنها عروسٌ زُفت للتو، وعيناها تلمعان بدموع
الفخر الحقيقي. وبجانبها، كان زين قد كبر قليلاً، يرتدي بدلةً صغيرة
"ويقفزُ فرحاً وهو يصرخ: "بابا! بابا البطل

في الغيبوبة، لا توجد ديون، ولا يوجد فشل؛ يوجد فقط ما يستحقه "
"قلبك الصادق

نزل معتز من المنصة، والشهادة في يده. لم تكن مجرد ورقة، كانت
صكَّ غفرانه. احتضن آية بقوة، فشعر بدفء، وشمَّ رائحة شعرها
التي طالما طاردته في أقبية إيطاليا

"شفتي يا آية؟" همس في أذنها. "بقيت كفاية.. عملتها عشانكم"
ردت بابتسامةٍ هي الأجل في الوجود: "أنت دائماً كنت كفاية يا
"معتز.. إحنا بس اللي استنيناك في المحطة الصح

أخذ يد "زين"، وخرجوا معاً إلى حدائق الجامعة. لم يعد هناك
"تليجرام"، ولا "نصب"، ولا "خاتم مسروق". كل شيء كان
طاهراً، ونقياً، ومكتمل الأركان. رأى والده يقف تحت شجرةٍ بعيدة،
يومئ له برأسه ويبتسم ابتسامة الرضا التي تمنّاها طوال عمره

وفجأة، بدأ المشهدُ يبهتُ قليلاً. الألوان الزاهية بدأت تتحولُ إلى
بياضٍ ناصع

مش عاوزه يخلص يا آية.. خليني هنا!" صرخ معتز وهو يتمسك " بيدها

مخلصش يا حبيبي،" قالت وهي تبتعدُ بهدوء نحو ذلك النور " الأبيض العظيم. "ده مش حلم.. دي الحقيقة اللي هنعيشها للأبد. يلا "يا معتز.. زين مستنينا عند الباب الثاني

في تلك اللحظة، على سرير المشفى، ارتسمت على وجه معتز "ابتسامة" لم يرها الأطباء من قبل. كانت ابتسامة رجل وجد ضالته أخيراً. لم يعد يشعر بالبرد، ولم يعد يهمله أن أحداً لم يزره. هو الآن في بيته، وسط عائلته، في يوم تخرجه الدائم

بدأ جهاز القلب يصدرُ صوتاً مستمراً.. طنيناً طويلاً يعلنُ نهاية الرحلة الأرضية

لكن في عقل معتز، كان الصوتُ هو صوت ضحكة "زين" وهو يركضُ نحو النور، وصوت "آية" وهي تهمسُ له للمرة الأخيرة

"أنت الآن.. كفاية جداً"

ساد الصمتُ في الغرفة رقم "402". توقف جهاز القلب عن الصراخ، وحلَّ محله سكونٌ مهيبٌ لا يقطعه سوى صوت خطوات الممرضة وهي تقترب لتضع الغطاء الأبيض فوق وجه "معتز". لم تكن هناك دموع، ولم تكن هناك صرخات وداع؛ فقط طبيبٌ يدون وقت الوفاة في ملفٍ بارد، وممرضةٌ تجمع المتعلقات الشخصية البسيطة التي تركها هذا "الغريب" خلفه

فتحت الممرضة الدرج، فوجدت قصاصات الورق التي كتبها معتز تحت مرتبته. نظرت إليها بفضول، رأت أسماءً مثل "آية" و"زين" و"عين شمس". لم تفهم اللغة، لكنها شعرت بحزنٍ يعصر قلبها من ملمس الورق المهترئ. وضعت القصاصات في كيسٍ بلاستيكي، وألصقت عليه ملصقاً يحمل رقماً، ففي هذه البلاد، حتى الموتى "يصبحون" أرقاماً.

في القاهرة - بعد أسبوعين

كانت "أم معتز" تجلس في صالة شقتها المتهالكة، تنظر إلى الباب كأنها تنتظر طرقةً لن تأتي. فجأة، طُرق الباب فعلاً. كان ساعي البريد يحمل ظرفاً رسمياً عليه طوابع إيطالية. فتحت الأم الظرف بيدٍ ترتجف، سقطت منه ورقةٌ وحيدة، هي الرسالة التي كتبها معتز في لحظة صدقٍ نادرة قبل انهياره التام.

..أمي"

سامحيني. لم أسافر لأصبح غنياً، بل سافرتُ لأنني لم أكن كافياً لأواجه خيبتني في عينيك. الذهب الذي سرقتُه لم يشتري لي وطناً، بل اشتري لي كفناً من الغربية. أخبرني "آية" و"زين" الذين سكنوا عقلي أنني أحببتهم أكثر من الحقيقة، وأنني سأنتظرهم هناك.. حيث لا "يوجد فقر، ولا يوجد زيف".

انهارت الأم باكية، وهي لا تفهم من هم آية وزين، ولا تفهم لماذا يطلب ابنها السماح عن "حلم". لم تكن تعلم أن "معتز" مات وهو يظن نفسه بطلاً تخرج من الجامعة، بينما الحقيقة أنه رحل وحيداً في مصحة نفسية، بلا اسمٍ على قبره.

في مقبرة الغرباء بضواحي ميلانو، وُضع جثمان معتز في حفرة ضيقة. لم يكن هناك مشيعون، ولم يُقرأ قرآنٌ فوق رأسه. وضعوا شاهده الرخامية الصغيرة، ولم يكتبوا عليها اسمه، بل كتبوا فقط: "مهاجر مجهول - 2026".

..لكن، في عالمٍ آخر.. بعيداً عن صقيع إيطاليا وقهر القاهرة كان "معتز" يمشى في حديقة واسعة، يمسك بيد "آية" اليمنى، وبيد "زين" اليسرى. كان يضحك بملء فيه، والشهادة الجامعية تلمع في جيبه. التفت خلفه، فرأى حياته القديمة كأنها دخانٌ يتلاشى.

همس لنفسه وهو ينظر لعين "زين" الصافية
كنتُ أظن أنني لم أكن كافياً للحياة.. لكنني الآن أدرك، أنني كنتُ "
"كافياً جداً لكي أحبّ وهماً.. جعلني أتحمّل كل هذا الألم

وانتهت الرواية، ليبقى اسم "معتز" معلقاً بين حقيقتين: حقيقةٌ تقول إنه "فاشلٌ رحل في صمت"، وحقيقةٌ يصدقها هو وحده.. بأنه "رجلٌ

ضحى بكل شيء ليعيش يوماً واحداً مع عائلته.. حتى لو كان ذلك
اليوم مجرد سراب

إلى كل مَنْ قرأ حكايتي وظنَّ أنها قصة صعود.. أعتذرُ "
منكم، فقد كنتُ أكذبُ حتى على نفسي

آية لم تكن يوماً زوجتي، وزين لم يكن يوماً ابني.. لم يكونوا سوى
'ستائر مخملية' أسدلتها فوق واقعي البشع لكي لا أموت رعباً من
فشلي. لقد سرقتُ ذهب أمي التي شقيت لأجلي، وبعثتُ خاتم
والدي الذي لم يرث مني سوى الخيبة، وهربتُ خلف البحار
لأبحث عن 'كرامة' ضيعتها بيدي على شاشات 'التليجرام' الزائفة

أنا الآن أرحلُ في صمت، في بلدٍ لا يعرفُ كيف ينطقُ اسمي،
وبجوار أشخاصٍ يرون فيّ مجرد 'رقمٍ' في سجل الموتى. اكتشفتُ
متأخراً أن الغربة ليست في البعد عن الوطن، بل في العيش داخل
'حلم' لا تملك ثمن تحقيقه

سامحيني يا أمي.. فقد متُّ وأنا أحاول أن أكون 'كافياً' في خيالي،
لأنني كنتُ أجبن من أن أواجه حقيقتي أمام عينيك. سأتركُ لكم
هذه الكلمات وأمضي إلى 'زين' و'آية'.. ففي القبر فقط، لا يجرؤ
أحدٌ أن يخبرني بأنهم ليسوا حقيقة